الفصل الأول
حقيقة الصِّراع بين الحقّ والباطِل

*** تأصيل الصِّراع وحتميَّته:**

لقد اقتضت حكمة الله ﷻ أن يخلق في النَّفس البشريَّة الشَّيء ونقيضه، فخلق فيها الخير والشَّر، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ (٨)** ﴾ [الزَّلزلة].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا (٨)** ﴾[الشَّمس].

وخلق فيها الحُبَّ والبُغض، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ** ﴾ [آل عمران:١١٩] .

وخلق فيها الرَّحمة والشِّدة، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ** ﴾[الفتح: ٢٩].

كما خلق في هذا الكون من المتناقضات ما يجعل فيه حالة من الصِّراع الدَّائم بين هذه المتناقضات، لتضفي على الكون حالة من التَّدافع والحركة التي تحول دون فساد هذا الكون، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٢٥١)** ﴾ [البقرة] .

ومن ذلك خلق الحقّ والباطل، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)** ﴾[الإسراء] .

وقد تمثَّل هذا الحقّ في شرع الله سبحانه وتعالى وما جاء به المرسلون عليهم السَّلام ، قال سبحانه وتعالى: ﴿ **كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ**

obeikandl.com

﴿ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ ﴾ [البقرة].

وتمثَّل الباطل في كل ما خالف شرع الله عَزَّوَجَلَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّۖ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ﴿٥٦﴾ ﴾ [الكهف].

ويعتبر هذا الصِّراع قديمًا بقِدَم الإنسانيَّة؛ إذ بدأ مع بدء الخليقة، فمنذ خلق الله فيها آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأسجد له ملائكته الكرام أعلن إبليس حربه على هذا المخلوق الجديد، وعاهد ربَّه على إغوائه وإضلاله، وهذا الصِّراع بين الشَّيطان وحزبه مع المؤمنين باقٍ إلى يوم القيامة، فهو صِراع ماضٍ لا مناصَ منه، إنه سُنَّةٌ من سنن الله الثَّابتة أبد الدهر.

وقد مارس الشَّيطان حربه مع آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بنفسه حين أزلَّه فأكل من الشَّجرة، ثمَّ تمثَّل هذا الصِّراع بين ابني آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين تقبَّل الله من أحدهما ولم يتَقَبَّلْ من الآخر، فقتل الآخر أخاه.

كما تمثَّل هذا الصِّراع بين الحقِّ والباطِل على مدى الزَّمان بالصِّراع بين الرُّسل وأتباعهم من جانب، والشَّيطان وأوليائه من جانب آخر، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [الأنعام].

وقد جاءت السُّنة المطهَّرة لتؤكِّد بكل وضوح أن الصِّراع بين الحقِّ والباطِل ماضٍ إلى يوم القيامة، قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الحقّ لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَذَلِكَ](١).

ومما سبق يتَّضح لنا أزليَّة الصِّراع بين الحقّ وأهله والباطل وحزبه، وهذا

(١) متفق عليه: البخاريّ برقم (٦٨٨٢)، ومسلم برقم (١٩٢٠).

يستدعي يقظة وعلمًا من أهل الحقِّ كي لا تكون فتنة ويكون الدِّين كلُّه لله.

* قِدَم الصِّراع بين الحقِّ والباطِل:

لقد بدأ الصِّراع بين الحقّ والباطِل منذ أن خلق الله ﷻ الإنسان على ظهر الأرض، فيوم أن كان آدم وحوَّاء في الجنَّة كان الله ﷻ قد خلقهما للابتلاء والاختبار، ولذلك قال الله ﷻ: ﴿ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ ﴾ [طه].

ومنذ تلك اللَّحظة ابتلي الإنسان بكيد الشَّيطان وخصومته وصراعه معه، وما زال الشَّيطان يكيد لآدم وحوَّاء حتى أُهبِطا إلى هذه الدُّنيا، وبعد إهباطهما وإهباط الشَّيطان قال الله ﷻ: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة: ٣٦].

وهنا انتقل ميدان الصِّراع إلى هذه الأرض، وبدأت الخصومة. ولذلك بعد هبوط آدم وحوَّاء إلى الأرض ظلَّت أجيال من النَّاس على الهدى قرونًا طويلة يتوارثون الهدى والخير والإيمان عن أبيهم آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في تفسير قول الله ﷻ: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[البقرة: ٢١٣].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « كَانَ بَيْنَ نُوحٍ وَآدَمَ عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهُمْ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْحَقِّ. فَاخْتَلَفُوا، فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. قَالَ: وَكَذَلِكَ هِيَ فِي قِرَاءَةِ عَبْدِ الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ﴿ كَانَ النَّاس أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾»(١).

هذا أحد الأوجه في تفسير الآية، وبناءً عليه نستطيع أن نقول: إن الأجيال التَّالية لآدم ظلت وفيَّة للحقِّ، وفيَّة للتوحيد الذي تلقته عن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، حتى أثَّر فيهم كيد الشَّيطان فانحرفوا عن التَّوحيد واندرست معالمه، فاحتاج

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (١/ ٥٦٩).

الأمر إلى بعثة نبي يجدِّد الإسلام والدِّين والتَّوحيد ﷻ، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾.

وبعد بعثة هؤلاء الرُّسل ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ صارت الخصومة بين الرُّسل وأتباعهم وبين الشَّيطان وأتباعه أعداءِ الرُّسل، ولذلك يقول ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾ [الفرقان].

فما من نبيٍّ بُعِث إلا وله أعداء من المجرمين يضعون العراقيل في طريقه، ويعترضون عليه بمختلف الوسائل، قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام].

* نماذج من الصِّراع في ضوء السِّياق القرآنيِّ:

إن المتدبِّر لكتاب الله ﷯ يلمَس بجَلاء أن القرآن قد ذكر نماذج كثيرة ومتعدِّدة للصِّراع المحتدم بين الحقّ والباطِل على مدار الحياة الإنسانيَّة، وأن هذا الصِّراع قد أخذ أسبابًا وصورًا متعدِّدة، وقد كان الصِّراع سِجالًا بين الحقّ والباطِل، ولكن الحقّ ينتصر ويعلو في المشهد الأخير من هذا الصِّراع المحتدِم.

ولسنا بصدد الاستطراد في ذكر نماذج هذا الصِّراع، فالمقام لا يتَّسع، وحسبنا أن نذكر ثلاثة نماذج بالإشارة والتَّلميح لنفهم المراد:

١ – صِراع ابنَيْ آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ:

قال ﷻ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْـَٔاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة] .

تروي كتب التَّفسير أن صراعًا نشأ بين ابني آدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من صُلْبه، نتيجة خلاف على جارية أرادها كل واحد منهما زوجة لنفسه[١].

وقد بلغ الأمر بينهما مبلَغه، فقرَّبا قُربانًا، فمن قَبِل الله قربانه حُسِم هذا الصِّراع لصالحه، وكانت الجارية زوجًا له، فلما كان الأمر على غير ما يريد صاحب الباطل هاجت نفسه وقتل أخاه ليمضي إرادته[٢].

تأتي هذه القصَّة كنموذج لطبيعة الشَّر والعدوان الصَّارخ الذي لا مبرر له سوى الحسد والجري وراء حظِّ النَّفس بغير حقٍّ، صِراع بين صاحب حقٍّ وصاحب باطل، أراد فيه الباطل أن ينتصر لنفسه ولو بجريمة نكراء يكون فيها اعتداء على حرمة الدَّم، وأي دم ؟ إنه دم أخيه!

ومن الجانب الآخر تقدِّم لنا نموذجًا لطبيعة الخير والسَّماحة والطِّيبة والوداعة، التي تجلَّت فيها رغبة المؤمن الصَّادق التَّقيِّ الذي يستمسك بحقِّه، فلم يساوم على شرع الله، وفي ذات الوقت يقدِّم دمه طمعًا في تكفير الذَّنب، والنَّجاة من غضب الله، وينأى بنفسه أن يمسَّ دم أخيه ولو كلَّفه ذلك الحياة، وهو يقول : ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٨﴾، وكلُّ ذلك طمعًا فيما عند الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من المغفرة والثَّواب، وتجنُّباً لِصراع وضع الشَّيطان رايته، ويطمح في جني ثماره ليحقِّق

---

(١) ذكر الإمام الألوسي في تفسيره أنه كان لا يولد لآدم عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مولود إلا ولد معه جارية فكان يزوِّج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ويزوِّج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر، جعل افتراق البطون بمنزلة افتراق النَّسب للضَّرورة إذ ذَّاك. انظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني ، محمود الألوسي (٢/ ١١١).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (٢/ ٤٢).

غاياته الدَّنيئة.

ويأتي هذا النَّموذج للدّلالة على أن مصير الباطل النَّدم والخيبة والخسران، وإن بدا لصاحبه أنه ظفر بما أراد، وأن الحقَّ هو الذي يسمو إلى الفضائل والقيَم، وإن بدا للبعض أنه خسر الجولة في الدُّنيا، إلا أنه في حقيقة الأمر هو المنتصر لترفُّعه عن الشَّهوات والأهواء والرَّغبات وحبِّ الذَّات، وذلك بفضل ما يملك من قوة إيمانيَّة تدفعه للتَّضحية بأغلى ما يملك طمعًا في الجنَّة والرِّضوان، ولم لا ، وصوت ربه ﷻ يناديه: ﴿**وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٣٢**﴾ [الأنعام]؟!

٢- الصِّراع بين موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وفرعون :

وردت قصة موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ مع فرعون في القرآن الكريم في أكثر من أربع وعشرين سورة، بعضها مفصَّل والآخر بشيء من الإجمال، وتمثِّل هذه القصَّة نموذجًا رائعًا للصِّراع بين الحقِّ والباطِل، الحقِّ الذي جاء به موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، والباطل الذي تجسَّد في جبروت فرعون، الذي أصبح مثلًا يُضرب لكل صاحب باطل متكبِّر عنيد، ومن عجيب حكمة الله ﷻ أن قوم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وهم بنو إسرائيل كانوا مستعبَدين لفرعون وقومه، وقد أرسله الله ﷻ ليكون معلِّمًا وداعيًا وهاديًا لفرعون وملئه، فقابلوا هذه الدَّعوة بالعلوِّ والطُّغيان، قال ﷻ: ﴿**ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٤٥ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧**﴾ [المؤمنون].

وقد مكث موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ يدعو فرعون وقومه سنوات طوال، توعَّد فرعون خلالها كلَّ من يؤمن بربِّ موسى أصنافًا من العذاب الأليم.

وقد كانت دعوة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تتركَّز على قضيَّة أساسيَّة هي عقيدة التَّوحيد، القائمة على أن للكون إلهًا واحدًا هو الله ربُّ العالمين، المتصرِّف فيه بحكمته، ولعل الآيات التي أخذ بها فرعون وقومه من القَحط والجفاف والطُّوفان والجراد والقُمَّل والضَّفادع والدَّم، كانت تهدف إلى بيان ضعف فرعون وعجزه عن دفع الشَّر أو جلب المنفعة له أو لقومه، لذا فقد كان القوم رغم وثنيَّتهم وخوفهم من فرعون يهرعون إلى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ متوسِّلين له أن يدعو ربه لكشف البلاء، ومع ذلك فلم يزدهم كشف البلاء إلا عنادًا وتكذيبًا، وإصرارًا على الكفر والشَّرك بالله، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥** ﴾ [الأعراف].

وقد لاقى موسى وقومه أصنافًا من الأذى والعذاب على يد فرعون وملئه، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لسان بني إسرائيل: ﴿ **قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ١٢٩** ﴾[الأعراف]. ولكن لمن كانت العاقبة ؟

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ **وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ١٣٧** ﴾ [الأعراف].

٣- الصِّراع بين النَّبيِّ محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقومه من قريش:

ويعتبر الصِّراع الذي مرَّت به دعوة نبيِّنا محمَّد ﷺ مع الباطل مدرسةً يجدر

بكل باحث يريد أن يقف على حقيقة الصِّراع بين الحقّ والباطل أن يدرس ويتدبَّر هذا النَّموذج الذي تجلَّت فيه كل مراحل الصِّراع الذي بدأ من أول يوم وقف فيه النَّبيُّ ﷺ على جبل الصَّفا يدعو قومه للإيمان، كما جاء عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « صَعَدَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الصَّفَا فَنَادَى [**يَا صَبَاحَاهُ**] فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ فَقَالَ: [**إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنِّي أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُمَسِّيكُمْ أَوْ مُصَبِّحُكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي**]. فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا تَبًّا لَكَ؟ فَأَنْزَلَ الله (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)»[1].

وقد أخذ هذا النَّموذج من الصِّراع أشكالًا متعدِّدة من تكذيب وتعذيب، كما جاء في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ** ﴿٤﴾ ﴾ [ص] .

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ** ﴿٢١٤﴾ ﴾[البقرة].

بل ومحاولة القتل أو السَّجن أو الإبعاد، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ** ﴿٣٠﴾ ﴾[الأنفال] .

بل المقاطعة والتَّجويع، كما بينت السُنَّة النبويَّة ذلك: أَنَّ قُرَيْشاً لَمَّا رَأَتْ أَصْحَابَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ نَزَلُوا بَلَدًا وأَصَابُوا فيهِ أَمْنًا وَقَرَارًا، اجْتَمَعُوا وَائتَمَرُوا بَيْنَهُمْ أَنْ يَكْتُبُوا كِتَابًا يَتَعَاقَدُونَ فِيهِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ عَلَى أَنْ لا يُنْكِحُوا إِلَيْهِمْ وَلا يَنْكِحُوهُمْ، وَلا يَبِيعُوهُمْ شَيْئًا، وَلا يَبْتَاعُوا مِنْهُمْ، فَلَمّا اجْتَمَعُوا لِذَلِكَ كَتَبُوهُ فِي صَحِيفَةٍ ثُمّ تَعَاهَدُوا وَتَوَاثَقُوا عَلَى

---

(١) أخرجه الترمذيُّ برقم (٣٣٦٣) ، وقال: حسن صحيح، وصحَّحه الألباني .

ذَلِكَ، ثُمّ عَلّقُوا الصّحِيفَةَ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ[1].

وقد لاقى النَّبيُّ ﷺ والصَّحابة ﷺ من جرَّاء هذه المقاطعة التي استمرت ثلاث سنوات أصنافًا من الجوع والحرمان.

وقد واجه النَّبيُّ ﷺ وصحبه هذه المحن بكل صبر وثبات ويقين بنصر الله ﷻ، وتنوَّعت مواجهة الباطل بأساليب عدَّة:

منها: الصَّبر وتحمُّل الأذى، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ **وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ** ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يونس].

وقال ﷻ: ﴿ **وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا** ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمّل].

وقال ﷻ: ﴿ **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا** ﴾ [الأنعام: ٣٤].

ومنها: ردُّ الظلم والعدوان، كما جاء في قوله ﷻ: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴿٣٩﴾ ﴾ [الحجّ].

وقال ﷻ: ﴿ **وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ** ﴿١٩٠﴾ ﴾ [البقرة].

وغير ذلك .. حتى أتمَّ الله النِّعمة، ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا.

❋ عاقبة الصِّراع في الدُّنيا والآخرة:

إن أي صراع بين متناقضين لا بدَّ أن يحسم في نهايته لأحد الطَّرفين، والمتدبِّر والمراقب للصِّراع بين الكفر والإيمان يلمس الحقيقة الكبرى، التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل في انتصار الحقّ على الباطل في الدُّنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿ **بَلْ نَقْذِفُ**

(١) انظر: تهذيب سيرة بن هشام، عبد السلام هارون، ص٨٢.

بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ وَلَكُمُ ٱلۡوَيۡلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الأنبياء]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب].

ويأتي نصر الله لأهل الإيمان في الدُّنيا في صور ثلاث:

الأول: انتصار الحقِّ على الباطل واندثار آثاره فترة من الزَّمان بجنود الله الكونيَّة، كما كانت نهاية قوم لوط ومدين وعاد وثمود وفرعون وقوم نوح، قال سبحانه وتعالى مذكِّرًا بنهاياتهم: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت] .

الثَّاني: انتصار الحقِّ على الباطل واندثاره فترة من الزَّمان بجنود الله من المرسلين وأتباعهم ، كما كان الحال مع طالوت وجالوت ، قال سبحانه وتعالى : ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة].

وكما هو الحال مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام في معاركه مع قريش والتي تُوِّجت بفتح مكة وإخراجه صلى الله عليه وسلم لقبائل اليهود من جزيرة العرب، والفتوحات الإسلاميَّة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم التي أطلَّت على مشارق الأرض ومغاربها.

الثَّالث: انتصار الحقِّ على الباطل بفناء أهل الحقِّ دفاعًا عن دينهم وثباتهم عليه، وإن بدا هذا الحال للبعض بأنه هزيمة، لكنَّه النَّصر المؤكَّد لأهل الإيمان، حين ظفروا برضوان الله عز وجل وجنانه، وبقيت آثارهم وسيرهم في الدُّنيا مثالًا للثَّبات على الدِّين والبذل والتَّضحية والفداء، وقد مثَّل أصحاب

الأخدود هذه الحالة حيث قتل المؤمنون بالنَّار، فخلَّد الله ذكراهم، وبقيت قصَّتهم مثلًا يُضرَب على مرِّ العصور لأهل الثَّبات على الدِّين.

أما انتصار أهل الإيمان على الباطل في الآخرة فأمثلته لا حصر لها، ولكن نكتفي بذكر بعض الأمثلة القرآنيَّة الدَّالة على ذلك مثل قوله ﷻ : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧** ﴾ [الشّورى].

وقال ﷻ: ﴿ **لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠** ﴾ [الحشر].

وقال ﷻ: ﴿ **أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٠** ﴾ [السَّجدة] .

وما من شكٍّ أن هذا المصير الأخرويَّ يُسهم في حسم الصِّراع بفوز الحقّ وأهله على الباطل وأهله، إذ يَنعم أهل الحقِّ بالجنَّة ونعيمها، ويَشقى أهل الباطل بالنَّار وجحيمها، وهذا الحسم يدركه كلُّ من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، أمَّا من ختم الله على قلبه فقد لا يدرك هذا المصير ولا هذا الحسم إلا بعد أن يلقى المصير المؤلم يوم القيامة، يوم يقول ﴿ **رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ** ﴾. ولكنَّ الأمر على غير ما يشتهي، ﴿ **كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠** ﴾[المؤمنون].

❋ الحـقّ واحد ، ولا وسطيَّة بينه وبين الباطل:

فكلُّ ما في الدُّنيا من أقوال وأعمال وآراء وسلوك؛ فهو متردِّد بين الحقِّ

والباطِل، والهدى والضَّلال، والخطأ والصَّواب، لا يمكن أن يخرج شيء في الدُّنيا عن هذه الأمور، إما أن يكون حقًّا أو يكون باطلًا، أو هدًى أو ضلالًا، أو خطأً أو صوابًا؛ ولا يمكن أن تخلو الدُّنيا أيضًا من هذا أو ذاك؛ فإننا نعلم أن قوام حياة النَّاس مبنيٌّ على مواقف وتصرُّفات وسلوك وأقوال ومذاهب، وأنه لا بدَّ للبشريَّة أفرادًا وجماعات من مذاهب يعتنقوها، وأشياء يتديَّنون بها، وأمورًا يلتزمونها، وهذه الأشياء منها ما يكون حقًّا ومنها ما يكون باطلًا.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فَالْحَقُّ يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ فَإِنَّ الْحَقَّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ الرُّسُلَ لَا يَشْتَبِهُ بِغَيْرِهِ عَلَى الْعَارِفِ كَمَا لَا يَشْتَبِهُ الذَّهَبُ الْخَالِصُ بِالْمَغْشُوشِ عَلَى النَّاقِدِ »[١].

والحقُّ واحدٌ لا يتعدَّد كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس].

قال الإمام القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « قَالَ عُلَمَاؤُنَا: حَكَمَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ مَنْزِلَةٌ ثَالِثَةٌ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي هِيَ تَوْحِيدُ الله تَعَالَى، وَكَذَلِكَ هُوَ الْأَمْرُ فِي نَظَائِرِهَا، وَهِيَ مَسَائِلُ الْأُصُولِ الَّتِي الْحَقُّ فِيهَا فِي طَرَفٍ وَاحِدٍ »[٢].

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « خَطَّ لَنَا رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: [هَذَا سَبِيلُ الله]، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: [هَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ] ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ » [الأنعام][٣].

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٧/ ٣١٥-٣١٦)..

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ (٨/ ٣٣٦)..

(٣) أخرجه أحمد في المسند، برقم (٤١٤٢) وحسنه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (١٦٦).

فقد ورد سبيل الله مفردًا ؛ لأنه واحد لا تعدُّد فيه، وجُمِعَت السُّبُل الأخرى؛ لأن سُبُل الضَّلالة كثيرة ومتعدِّدة.

وحينما تكلَّم الإمام ابن القيِّم عن الإفراد والجمع في المصطلحات القرآنيَّة، قال: « مما يدخل في هذا الباب: جمع الظُّلمات وإفراد النُّور، وجمع سبل الباطل وإفراد سبيل الحقّ، وجمع الشَّمائل وإفراد اليمين.

أمَّا الأول: فكقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ١ ﴾ [الأنعام] .

وأمَّا الثَّاني: فكقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ١٥٣ ﴾ [الأنعام].

وأمَّا الثَّالث: فكقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ٤٨ ﴾ [النَّحل].

والجواب عنها يخرج من مشكاة واحدة، وسرُّ ذلك والله أعلم: أن طريق الحقِّ واحد، وهو على الواحد للأحد. كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ٤١ ﴾[الحجر] »[(١)].

فإنك لن تُهدَى إلى طريق الله عز وجل ولن تتمكَّن من السَّير عليه، إلا إذا استعنتَ بالله تعالى وحده .. أما إذا ركنتَ إلى نفسك ولو لِلَحظة، وظننتَ أنه بإمكانك الاستعانة بقدراتك وإمكانيَّاتك دون الاستعانة بحول الله وقوَّته فقد ضلَلْتَ سواء السَّبيل.

فالمقصود الأسمى هو الله عز وجل، ولا ينبغي أن يكون في القلب عبوديَّة لسواه.

(١) بدائع الفوائد، لابن القيِّم (١/ ١١٩).

وكثيرٌ من النَّاس يلتفتون عن الطَّريق، ويعيشون الوهم والخديعة الكبرى ويحسبون أنهم مهتدون!! .. وذلك لأنه قد تكون في قلوبهم عبوديَّة للمال أو الجاه أو حبّ الدُّنيا وملذاتها الفانية.

إذًا لابدَّ للبشريَّة أفرادًا وجماعات من عبادة الله، أو عبادة الشَّيطان بصوره المختلفة، ويستحيل أن يوجد وسط بينهما، فكل إنسان يرفض عبادة الله لا بدَّ أن يعبد الشَّيطان؛ لأن مجرد رفض عبادة الله ﷻ هو ذاتها عبادة للشَّيطان، فلا يمكن أن تخلو الدُّنيا من أحد هذين الأمرين، ولا يمكن أن يخلو شخص من أحدهما؛ لذلك نعلم أنه لا يمكن أن يوجد إنسان وسط، إمَّا إلى هذا وإمَّا إلى ذاك.

إن مسألة الحياد في أمر الحقِّ والباطل غير واردة، وحين يقول إنسان: أنا محايد بين الحقِّ وبين الباطل، فإنه يصنَّف في دين الله وشرعه في قائمة أهل الباطل؛ ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿ **فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴿٣٢﴾ ﴾ [يونس].

فليس هناك إمكانيَّة الحياد في مسألة الحقِّ والباطل، والهدى والضَّلال، والخطأ والصَّواب، وهذا لا يمنع -بطبيعة الحال- أن يوجد أمور يكون فيها حقٌّ وباطل، وخطأ وصواب؛ لكن لا يعني هذا أن الخطأ صار صوابًا، أو أن الصَّواب صار خطأً، بمعنى أنك تجد الإنسان يقول بقول في مسألة من المسائل لا تستطيع أن تقول: إن هذا القول باطل محض، ولا أن تقول: إن هذا القول حقٌّ محض؛ لكن تستطيع أن تقول: إن هذا القول التبس فيه الحقُّ والباطل، أي: أنه توجد نسبة من الحقِّ وهي كذا وكذا، وتوجد نسبة من الباطل وهي كذا وكذا، ويبقى الحقّ حقًّا والباطل باطلًا.

*** دعوى أن الحقّ نسبيٌّ والردُّ عليها :**

لقد خرجت علينا طوائف تقول: لا أحد يحتكر الحقيقة المطلقة، والحقُّ

نسبيٌّ، ويوجد عند كل طائفة جزء من الحقِّ، وبهذا نلتقي!

لماذا دخلوا علينا هذا المدخل؟ لأن المنافقين عندما يريدون إشاعة الباطل أو إشاعة الشِّرك، أو إشاعة البدعة، أو إشاعة الانحرافات، أو إشاعة المعاصي فلا بدَّ لهم من مدخل يدخلون منه على النَّاس توطئة وتمهيدًا، فما التَّوطئة والتَّمهيد المناسبان لقضيَّة إحداث الالتباس وخلط الأمور، وجَعْل المِلَل الكُفريَّة تدخل على النَّاس من كل ناحية، وتكون مقبولة غير محاربة ولا مرفوضة؟

المدخل الشَّيطانيُّ أن تروَّج فكرة، وهي أنه: (لا أحد يحتكر الحقيقة المطلقة، وأن الحقّ المطلق لا يملكه كل أحد، وأن الحقّ قضيَّة نسبيَّة، وأن ما يكون عندك مقبولًا يكون عند غيرك مرفوضًا، وأن ما يكون عند غيرك مرفوضًا يكون عندك مقبولًا، وهكذا ما يكون عند غيرك مقبولًا يكون عندك أنت أيضًا مرفوضًا، وأنه لا يمكن أن نقول: إن المسلمين عندهم كل الحقِّ، فالنصارى عندهم جزء من الحقِّ، واليهود عندهم جزء من الحقِّ، وأنه لا يمكن أن نقول: إن أهل السُّنَّة عندهم كل الحقِّ، فالقدريَّة عندهم جزء من الحقِّ، والجبريَّة عندهم جزء من الحقِّ، والجهميَّة عندهم جزء من الحقِّ، والأشاعرة عندهم جزء من الحقِّ، وأهل الرفض عندهم جزء من الحقِّ، فلا تحتكر الحقَّ، ومن أنت حتى تحتكر الحقَّ وتدَّعي أن العالم كله على خطأ؟!).

وهكذا يبدأ تمهيد الطَّريق لدخول الكفر والبدع بأنواعها، وهذه الفكرة ابتدعها السفسطائيون من اليونان في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد، ولذلك قال علماؤنا في هذا المذهب: «أوله سفسطة وآخره زندقة»؛ لأنه يجعل الشَّيء ونقيضه مقبولًا في وقت واحد، ويخيِّر النَّاس بين كلِّ المذاهب وكلِّ الأفكار، وكلِّ الطُّرق، وكلِّ الأديان، ويؤدِّي في النِّهاية إلى قضيَّة وحدة الأديان، أو إلى قضيَّة اجتماع الأديان، والرِّضا بكل الأديان والفرق والطَّوائف.

وقد قال أحد ملاحدة العرب معبِّرًا عن هذه المدرسة:

لَقَدْ صارَ قَلْبي قابِلًا كلَّ صُورةٍ *** فمَرْعًى لِغِزْلانٍ ودَيْرٌ لِرُهْبانِ
وبيتٌ لأوثـانٍ وكعـبةُ طائـفٍ *** وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أَدِينُ بِدِينِ الحُبِّ أَنَّى توجَّهَتْ *** ركائِبُهُ فالحُبُّ دِيني وإيمـاني[1]

فلم يقل: فالحقُّ ديني وإيماني؛ بل قال: فالحبُّ ديني وإيماني، ولذلك لا مانع عندهم أن يجتمع هؤلاء من جميع الملل والنِّحَل والفرق والأديان، ويؤلِّفوا شيئًا جديدًا ومذهبًا اسمه الإنسانيَّة، وقالوا بقضيَّة نسبيَّة الحقيقة، وهي قضيَّة خطيرة جدًّا ستؤول إلى أن الإسلام ليس هو فقط الدِّين الحقّ، وأن طريق أهل السُّنة وطريق السَّلف الصَّالح ليس هو كل الحقّ، والمولى ﷻ قال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، مع أن الآية تعني لكم دينكم الباطل ولي ديني الحقّ، لكم دينكم المختلف عن ديني، ولي ديني المختلف عن دينكم، أنا كافر بما عندكم، وأنتم كفَّار بما عندي، هذا معنى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، إلا أن هؤلاء يريدون أن يستعملوا هذه الآية على غير ما أنزلها الله ، وأن يفهموا منها غير مراد الله ﷻ منها.

إن الحقَّ واحد وأهله في الجنَّة، والباطلَ شُعَبٌ وأهله في النَّار، وإذا كنَّا سنسير على مذهب نسبيَّة الحقِّ، وأن الجميع على حقٍّ فلمن خلق الله النَّار ؟ ومن الذي سيدخلُها ؟

قد يجيبون قائلين: سيدخل النَّار الحرامي المغتصِب، وربما لا يقولون: الزَّاني؛ لأن الزِّنا إذا صار برضا الطَّرفين فهو عندهم صحيح وليس بخطأ، والمرتشي؛ لأن الرشوة تؤدِّي إلى الإفساد العام، أي أنهم يختارون جرائم معيَّنة ويقولون: هذه للنَّار، فماذا عن الذي يعبد (بوذا) من دون الله، والذي يجعل البقرة إلهًا من دون الله، والذي يجعل الله ثلاثة، والذين يقولون: عزيرٌ ابن

(١) الكشكول – الشيخ بهاء الدِّين محمَّد بن حسين العاملي (١/ ٣١).

الله، والذين يعبدون الأصنام، والذين عبدوا هبل واللَّات والعُزَّى ومناة الثَّالثة الأخرى ؟ أين مصيرهم ؟

لذلك نحن أمام كفر خطير جدًّا يروَّج له، ونهايته : أن أهم شيء في العالم هي الحريَّة بإطلاق : من حريَّة الأديان ، وحريَّة الأفكار ، وحريَّة التفكير ، وحريَّة الاعتناق ، وحريَّة المذاهب ، وحريَّة الفِرَق ، فهذه المدرسة وأصحابها تجعل الحريَّة بهذا المعنى الواسع هي أهم شيء في الحياة، وخاصَّة في أجواء الظُّلم والاضطهاد، فتتوافق الدَّعوة الخطيرة مع ما يحِسُّ به كثير من النَّاس من الظُّلم، فتشرئبُّ الأعناق نحو هذه الدَّعوة إلى الحريَّة بحكم الضُّغوط والاضطهاد الواقع على رؤوس الكثيرين، وبعض العامَّة لا يدركون خطورة ما وراء الدَّعوة إلى الحريَّة، وتقديسها وجعلها المبدأ الأول الذي يبحث عنه النَّاس في العالم، لذلك فإن الأمَّة تحتاج إلى علم وبصيرة لإدراك هذه القضيَّة.

****

obeikandl.com